الدعاء آداب وأحكام

د. فيصل بن علي البعداني



المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن الدعاء هو أعظم أسباب وصول العبد إلى ربه، فكلما تذلل بين يديه وأظهر حاجته وافتقاره وهبه الله تعالى من فضله ورحمه وعافاه وأحسن إليه وحفظه، ولذا فلا غنى للعبد عن دعاء ربه، وسؤال خالقه سبحانه ورجائه والاستغاثة به والتوكل عليه بحال من الأحوال، لأن الخير كله له تعالى، والتدبير تدبيره، والملك ملكه، والأمر أمره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده.

ولرفعة الدعاء وعلو منزلته، جمعت نبذة موجزة عن الدعاء وفضله وآدابه وبعض أحكامه، سائلاً الله تعالى أن ينفعني بها، ويجعل نفعها مباركا عميماً، إن ربي جواد كريم.

والله الهادي

أولاً: مفهوم الدعاء:

الدعاء في اللغة: النداء والطلب، يقال: دعا الله: طلب منه الخير ورجاه منه، ودعا فلانا ناداه، ودعا لفلان: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب الشر له.

يقول الفيومي: (دعوت الله أدعوه دعاء: ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً ناديته وطلبت إقباله، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله، والجمع دعاة وداعون).

وأصل معاني الدعاء إمالة الشيء إليك وجذبه نحوك، يقول ابن فارس: (الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول: دعوت أدعو دعاء).

وذكر د. جبل بأن المعنى المحوري لمادة دعو هو (جَذْب الشيء أو محاولة ضمه إلى حيز أو أمر: كجذب اللبَن إلى حيّزه أو حيّز الحالب، وجذب الناس إلى الوليمة والاجتماع، والسَوْق إلى الأمير. ومنه: الدعوة لأداء شهادة مثلًا).

والدعاء في اللسان له إطلاقان شائعان:

أحدهما: إطلاقه على المصدر، تقول ما أحسن الدعاء، أو الدعاء عبادة، تريد مطلق الدعاء وجنسه لا دعاء بعينه.

والثاني: إطلاقه على اسم المفعول، تقول: سمعت دعاء، أي صوتاً دعي الله به بألفاظ محددة، وتقول: اللهم استجب دعائي، تريد دعوتك الخاصة التي سألت ربك قبل إياها.

والدعاء في الاصطلاح: مناداة الله والطلب منه جلب مرغوب أو دفع مرهوب، فإنه تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات.

وفي تجلية ذلك يقول الخطابي: (ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده إياه المعونة. وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عزوجل وإضافة الجود، والكرم إليه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: (الدعاء هو العبادة)).

وقال ابن العربي: (حقيقة الدعاء: مناداة الله تعالى لما يريد من جلب منفعة، أو دفع مضرة من المضار والبلاء بالدعاء، فهو سبب لذلك واستجلاب لرحمة المولى، كما أن الترس لرد السهم والماء لخروج النبات من الأرض).

وقال القاري: (هو طلب الأدنى بالقول من الأعلى على جهة الاستكانة).

وأجاد د. العروسي، حين عرفه بأنه: (الرغبة إلى الله تعالى والتوجه إليه في تحقيق المطلوب أو دفع المكروه، والابتهال إليه في ذلك إما بالسؤال، أو بالخضوع والتذلل والرجاء والخوف والطمع).

فجمع في تعريفه بين كل أنواع الدعاء وبواعثه، ثم قال: (بقي أن تعلم أن معنى الدعاء القائم بقلب المؤمن ووجدانه وشعوره وراء هذه العبارات اللفظية، وإنما هذه العبارات تمثيل وإشارة وتفهيم وتقريب، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الرغبة والابتهال والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه والالتجاء إليه والاعتصام به، والتزلف إليه أمر لا تحيط به العبارة)، ولا يدرك حقيقته إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الوصف والخبر.

❋ ❋ ❋

ثانياً: معاني الدعاء في القرآن الكريم:

ورد لفظ الدعاء ومشتقاته في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ومن ذلك:

- **الدعاء بمعنى المناداة والطلب**، -كما هو أصل المعنى اللغوي-، وهو أكثر ما يستعمل في الدعاء، ومنه: قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾[النور:٦٣].

قال الصابوني: (أي: لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، بل قولوا: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله؛ تفخيماً لمقامه، وتعظيماً لشأنه).

وقال أبو حيان: (لما كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة، أمروا بتوقير رسول الله ﷺ بأحسن ما يدعى به نحو: يا رسول الله، يا نبي الله، ألا ترى إلى بعض جفاة من أسلم كان يقول: يا محمد، ... وكانوا يقولون: يا أبا القاسم، يا محمد، فنهوا عن ذلك).

- **الدعاء بمعنى العبادة**، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، قال الزجاج - في معنى ﴿ادْعُونِي﴾- : (أي اعبدوني، والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾). واستعمال الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن الكريم.

- **الدعاء بمعنى الاستغاثة**، وهي طلب من كان في شدة، فهي مناداة خاصة، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٦٧]، أي: إذا أصابتكم شدة في البحر حتى أشرفتم على الغرق، غاب عن عقولكم كل الذين تعبدونهم من دون الله، ولم تستغيثوا إلا به وحده، لأنه لا مغيث غيره، ولا قادر سواه.

- **الدعاء بمعنى الاستفسار** والسؤال، ومنه: قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾[البقرة:٦٩]، أي: استفسر لنا ربك واسأله -بدعائك إياه- يكشف لنا ويوضح ما لون تلك البقرة.

- **الدعاء بمعنى الحث** والترغيب والحض، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[غافر:٤١]، أي: ما لي أحثكم على إتيان ما فيه نجاتكم و فلاحكم، وتحثوني على إتيان ما فيه شقائي وهلاكي.

وقوله سبحانه: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾[يونس:٢٥]،أي والله يحضكم على لزوم الطريق الموصل إلى موطن السلام، وهي جناته التي أعدها لأوليائه.

- **الدعاء بمعنى النداء**، ومنه: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[النمل:٨٠]، قال قتادة: أي كما لا تسمع الميت كذلك لا تسمع الكافر.

وقال مقاتل: (هذا مثل ضربه الله عز وجل للكفار، يقول: إن الأصم إذا ناديته لم يسمع، فكذلك الكافر لا يسمع الوعيد والهدى إذا ما ينذرون).

- **الدعاء بمعنى العقوبة** والعذاب، ومنه: قوله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾[المعارج:١٧].

وقال ثعلب: (﴿تَدعُو﴾، أي: تهلك، تقول العربُ: دعاك الله، أي: أهلكك اللَّهُ).

وقال المبرد: (﴿تَدعُو﴾، معناه: بعذاب).

وقال الخليل: (إنه ليس كالدعاء: تعالوا، ولكن دعوتها إياهم تمكنها منهم، ومن تعذيبهم)، وهذا وجه في الآية، والآخر ذكره ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: (تدعُو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما تلتقط الطَّير الحبَّ).

- **الدعاء بمعنى القول**، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[الأعراف:٥]، قال ابن الأنباري: (يريد: فما كان قولهم: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ إلا الاعتراف بالظلم والإقرار بالإساءة).

وقال ابن كثير: (أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا).

- **الدعاء بمعنى التسمية**، ومنه قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ الأحزاب:٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: (انسبوهم إلى آبائهم الذين ولدوهم)، فهو أعدل وأقوم عند الله.

- **الدعاء بمعنى الاستعانة**، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣]،أي: واستعينوا بأعوانكم وأنصاركم الذين يظاهرونكم على تكذيبكم، قال الواحدي: (و (الدعاء) على هذا القول بمعنى: الاستعانة، والعرب كثيراً ما تستعمل الدعاء في معنى الاستعانة، وذلك أن الإنسان إذا استعان بغيره دعاه، فلما كان في الاستعانة يحتاج إلى الدعاء، سمى الاستعانة دعاء).

وغير هذه المعاني في القرآن كثير، وكثير منها متقارب، وعامتها نداء وطلب، ويكون الفارق بينها إما بإضافة قيد أو كونه متعلق بحالة خاصة يكون عليها السائل، كخوف أو طمع ونحو ذلك، والله أعلم.

ومع كثرة معاني الدعاء الواردة في القرآن واللسان، فالأصل في معانيه في اللغة والشرع: النداء والسؤال والطلب، قال الشوكاني: (معنى الدعاء- حقيقة وشرعا-، هو: الطلب).

وقد لخص ابن تيمية كيفية ورود الدعاء الاصطلاحي في القرآن، فقال: (... هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما)، فمما هو أظهر في دعاء المسألة قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]، وقوله سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[القمر:١٠].

ومما هو أظهر في دعاء الثناء والعبادة، قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله﴾[الأنعام:٥٦]، لاقتران ﴿تَدْعُونَ﴾ بـ: ﴿أَعْبُدَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالِقِينَ (١٢٥) الله رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[الصافات:١٢٥-١٢٦].

ومما هو أظهر في اشتماله على النوعين، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، ففي قوله ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، إشارة إلى دعاء المسألة أكثر، وفي قوله ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ إشارة إلى دعاء الثناء والتعبد أكثر، وقد جاء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]).

ومرد الأمر كله إلى النظر والتغليب لا أكثر، وقوله سبحانه: ﴿وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فالدعاء بالأسماء الحسنى يتناول دعاء الثناء والتعظيم والتعبد، ويتناول

دعاء المسألة والطلب، قال الواحدي: (دعاؤه بها تعظيمه بذكرها؛ كقولك: يا قدير يا عليم يا كريم).

وقال القرطبي: (أي: اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهدني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، هكذا. فإن دعوت باسم عام، قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني. وإن دعوت بالأعم الأعظم، فقلت: يا الله، فهو متضمن لكل اسم. ولا تقول: يا رزاق اهدني، إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير)، والله أعلم.

❖ ❖ ❖

ثالثاً: شرف الدعاء:

الدعاء هو أعظم العبادة، ولبها ومخها، ولعل من أبرز ما يبين فضل الدعاء وعلو منزلته ما يلي:

- عناية القرآن الكريم بموضع الدعاء: أمراً به وحثاً عليه، ونهياً عن ضده، فمن النصوص الآمرة به والحاثة عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

وقوله سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥]، والجليل لا يأمر إلا بجليل، ولا يحث إلا على جليل.

ومن النصوص الناهية عن شرك الدعاء، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص:٨٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:٥٥].

وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

قال ابن معمر: (لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر والردة، ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله بالنهي عنه والتحذير من فعله والوعيد عليه).

وقال الشوكاني: (وإخلاص التوحيد لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله، والنداء والاستغاثة، والرجاء، واستجلاب الخير، واستدفاع الشر له ومنه، لا لغيره ولا من غيره ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]).

بل إن ابن القيم ليجعل الشرك في الدعاء هو (أصل شرك العالم).

- أن الدعاء مشروع مستحب، في كل وقت ومكان وحال، إلا في أحوال خاصة ورد الشرع باستثنائها، تكرمة لاسم الله تعالى.

ومن دلائل ذلك: قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

حيث جعل تعالى دعاء المؤمنين إياه من جملة ذكره، وفي تقرير ذلك يقول القرطبي: (ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصر زمانه. ومن هذا المعنى قول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه)).

وقال النووي:(اعلم أن الذكر - والدعاء من جملته - محبوب في جميع الأحوال إلا في أحوال ورد الشرع باستثنائها، ... فمن ذلك: أنه يكره الذكر حال الجلوس على قضاء الحاجة، وفي حالة الجماع، وفي حالة الخطبة لمن يسمع صوت الخطيب، وفي القيام في الصلاة، بل يشتغل بالقراءة، وفي حالة النعاس، ولا يكره في الطريق ولا في الحمام. والله أعلم).

وقوله ﷺ: (من سرّه أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء)، والمرء لا يخلو حاله أن يكون بين رخاء وشدة، ولذا قال ابن أبي زيد القيرواني: (الإكثار من الدعاء مستحب في كل وقت).

وقال العقيلي: (الدعاء مستحب في كل وقت وفي كل زمن حتى في وقت النهي).

- أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يخبر الناس أنه تعالى لا يبالي بهم ولا يعبأ بأحد منهم لولا دعاؤهم إياه دعاء عبادة ودعاء مسألة، فمن أراد منهم أن تكون له حظوة عند الله ومنزلة لديه

فليلزم عبادته الخالصة، وليكثر من مسألته سبحانه وحده لا شريك له، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧]، قال الزجاج: (أي لولا توحيدكم إياهُ، ... وتأويل ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ أي: أيُّ وزن يكون لكم عنده، كما تقول: ما عبأت بفلان، أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر).

وقال ابن عطية: جاءت الآية (خطابا لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم، أي: ما يبالي الله بكم ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت إذ ذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله، قال تعالى: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]).

وقال أبو السعود: (أي: أيُّ عبء يعبأ بكم، وأي اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى).

وقال النقاش: (لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك).

- أن النبي ﷺ رفع من شأن الدعاء ورفع من مقامه، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله ﷺ: ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)، قال المظهري: (يعني: ليس عبادة أكرم على الله من الدعاء).

وعلة ذلك: أن في الدعاء (إظهار العبد العجز والاحتياج عن نفسه، والاعتراف بأن الله تعالى قادر على إجابة الدعاء، كريم، غني، لا بخل له، ولا فقر، ولا احتياج له إلى شيء حتى يحفظه لنفسه، ويمنعه عن عباده، وهذه الأشياء عين العبادة، بل مخ العبادة).

وقال ابن الملك الحنفي: (لأن فيه إظهار العجز، والاعتراف بالفقر، والتذلل).

وقال الشوكاني: (قيل: وجه ذلك، أنه يدل على قدرة الله تعالى وعجز الداعي، والأولى أنه يقال: إن الدعاء لما كان هو العبادة، وكان مخ العبادة ...، كان أكرم على الله من هذه الحيثية؟؛ لأن

العبادة هي التي خلق الله سبحانه الخلق لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]).

وقال الطيبي: (فإن قلت: كيف التوفيق بين هذا الحديث وبين قوله تعالي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، قلت: كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم، قال الله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]، وإنما كان أكرم الناس أتقاهم؛ لأن الكرم من الأفعال المحمودة، وأكرمها ما يقصد به أشرف الوجوه فأشرف الوجوه ما يقصد به وجه الله تعالي، فمن قصد ذلك بمحاسن أفعاله فهو التقي، فإذا أكرم الناس أتقاهم، وعلى هذا حكم الدعاء؛ لأنه مخ العبادة).

وتعقبه الملا علي القاري: ((ليس شيء): أي من الأذكار والعبادات، فلا ينافيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، حتى يتكلف للجواب عنه على ما ذهب إليه الطيبي، وإن كان مآل جوابه إلى ما قلنا حيث قال: كل شيء يتشرف في بابه)، فكأنه تعقبه بغير متعقب.

- أن النبي ﷺ جعل الدعاء هو العبادة على سبيل الحصر والقصر، كما جاء ذلك من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]).

قال الخطابي: (معناه: أنه معظم العبادة، أو أفضل العبادة، كقولهم: الناس بنو تميم، والمال الإبل، يريدون: أنهم أفضل الناس، أو أكثرهم عددا أو ما أشبه ذلك، وإن الإبل أفضل أنواع

الأموال، وأنبلها. وكقول النبي ﷺ: (الحج عرفة). يريد: أن معظم الحج الوقوف بعرفة. وذلك؛ لأنه إذا أدرك عرفة، فقد أمن فوات الحج. ومثله في الكلام كثير).

وقال الصنعاني: (وذلك لأن العبادة هي غاية الخضوع والتذلل لله تعالى، وفي الدعاء: الخضوع والتذلل، فهو العبادة).

- افتتاح القرآن بالدعاء واختتامه، فسورة الفاتحة جاءت مشتملة على نوعي الدعاء: دعاء الثناء والعبادة ودعاء المسألة والطلب. وختم القرآن بسور الإخلاص والمعوذتين، وهي مشتملة على ذلك، فسورة الإخلاص تمجيد لله وثناء، والمعوذتين: استعانة وطلب.

وفي تقرير ذلك يقول ابن تيمية: (وأما سورة (الإخلاص و المعوذتان ففي الإخلاص الثناء على الله وفي المعوذتين دعاء العبد ربه ليعيذه والثناء مقرون بالدعاء كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد: نصفها ثناء للرب، ونصفها دعاء للعبد، والمناسبة في ذلك ظاهرة).

قال د. العروسي: (وهذا دليل واضح على منزلة الدعاء ومكانته).

- أن الله تعالى سمى الدعاء بالدين، في غير موضع من كتابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[يونس:٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[لقمان:٣٢].

قوله تبارك اسمه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:٦٥]، فسمى الدعاء بالدين كله، لأنه ركيزته والأصل الذي يقوم عليه، قال ابن معمر: (ومن هنا يتبين عظمة الدعاء وأهميته وأنه من أفضل العبادات وأجل الطاعات، ولهذا أخبر أنه الدين، فذكره معرفاً بالألف واللام).

- أن في الدعاء من حضور القلب والتودد لله تعالى ما ليس في غيره من العبادات، يقول الدهلوي: الدعاء (يفتح باباً عظيماً من المحاضرة، ويجعل الانقياد التام والاحتياج إلى رب العالمين في جميع الحالات بين عينيه).

ويقول د. العروسي: (فإن من تعبد بالصلاة أو الصوم أو الحج أو غيرها، يغلب عليه فيها الغفلة، فإذا دعا استدعى ذلك منه مزيد حضور في قلبه، ولهذا ورد فيه أنه مخ العبادة دون غيره من العبادات؛ لأن المخ هو المغذي للأعضاء والمقوم لاستدامة بقائها، فالدعاء شبه به؛ لأنه يعمل هذا العمل).

- اشتمال الدعاء على أنواع عديدة من عبادات القلب واللسان والجوارح، ففيه: توجه القلب بكليته إلى الله تعالى.

وفيه: توكل على الله ومحبة له، وترجي الإجابة والخوف من عدمها.

وفيه: ثناء على الله وتعظيم له واعتقاد بكمال قدرته وسعة رحمته ودقيق لطفه وسرعة إجابته.

وفيه: تودد لله وتواضع بين يديه، وتذلل وافتقار وكثرة انطراح بين يديه سبحانه وتبري من الحول والقوة.

وفيه: ذكر باللسان واستغفار واستغاثة.

وفيه: رفع لليدين ودمعة عين ونحو ذلك.

قال د. العروسي: (فهذه الأنواع من العبادات من أعظم أنواع أعمال القلوب. كما إن النداء وذكر المدعو واللهج باسمه من أعظم أعمال اللسان والذكر. كما إن الخشوع والتضرع ورفع اليدين إلى السماء من أعظم أعمال الجوارح).

* * *

رابعاً: ثمرات الدعاء:

ثمرات الدعاء فوق أن تحصر، ولعل من أبرزها:

- أن الدعاء في ذاته طاعة لله وقربة، يؤجر صاحبها بتقربه إلى الله تعالى بها، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة:١٦-١٧].

وقد جاء من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠])، فالدعاء مفتاح للظفر بالثواب وسبيل عظيم من أعظم سبل ترضية الله تعالى والتودد له ونيل الأجور العظيمة.

- أن الدعاء بوابة كبرى لمعرفة الله سبحانه وعظيم قدرته، وسعة رحمته، ودقيق لطفه، وكبير عطائه، وتعاقب كرمه وإحسانه وأفضاله على العبد، وسبيل جليل يدرك من خلاله العبد أنه محتاج إليه سبحانه أعظم حاجة في كل وقت وحين.

يقول ابن أبي العز في سياق ذكر فوائد الدعاء: بأن فيه (ما يعجل للعبد، من معرفته بربه، وإقراره به، وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم. وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية، التي هي من أعظم المطالب).

ويقول ابن رجب: (واعلم أنَّ سؤالَ اللهِ تعالى دونَ خلقه هوَ المتعين؛ لأنَّ السؤال فيهِ إظهار الذلِّ من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار. وفيه: الاعترافُ بقدرةِ المسؤول على دفع هذا الضَّرر، ونيل المطلوب، وجلبِ المنافع، ودرء المضارِّ، ولا يصلح الذلُّ والافتقار إلاَّ لله وحدَه).

- أن الدعاء مفتاح التذلل لله ومناجاته والخضوع له والتودد إليه، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٥-٥٦].

وقد نبه ابن القيم على أن العبد متى كانت له حاجة فألح على ربه في طلبها فتح الله له حال السؤال؛ من معرفته ومحبته، والتملق له والتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وتفريغ القلب له، وعدم تعلقه في حاجته بغيره ما ينسيه حاجته. ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته. بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته. وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك. وقد قال بعض العارفين: (إنه لأن تكون لي حاجة إلى الله. فأسأله إياها. فيفتح عليَّ من مناجاته ومعرفته، والتذلل له، والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها، وتدوم لي تلك الحال).

- أن في الدعاء إجابة للداعي، وهو سبيل لنيل المطلوب في الدنيا وفي الآخرة، وإن لم يأتِ على الوجه الذي سأله المرء، فالله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]. والله سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

وقد جاء من حديث جابر رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم).

قال المظهري: (يعني: إذا سأل الله أحد شيئاً؛ فإن جرى في الأزل تقدير إعطائه ما سأل أعطاه، وإن لم يجر التقدير دفع الله عنه البلاء عوض ما منع مما سأل).

وقال المناوي: (فكل داع يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة؛ فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه بحسب ما تقتضيه مصلحته وحاله).

وتتأكد الإجابة متى خرجت من قلب محرق، أو مضطر صادق، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال النبي ﷺ: (ثلاث دعوات مستجابات لهن لا شك فيهن: دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالدين على ولدهما).

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما -في بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن- وفيه: أن النبي ﷺ قال له: (واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة).

وقد جاء في القرآن العديد من الأدعية التي أخبرنا الله تعالى بأنه أنال فيها الداعين مطلوبهم، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾[البقرة:٢٥٠-٢٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[الأنبياء:٧٦].

وقوله عز وجل: ﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤].

وقوله تبارك اسمه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨].

وقوله تقدس اسمه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾[الأنبياء:٨٩-٩٠].

أن في الدعاء سلامة العبد من الكبر، المنهي عنه في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، فترك الدعاء من الاستكبار وتجنب ذلك واجب لا شك فيه.

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دعائي وتوحيدي).

وقال الشوكاني: (وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله).

وقال السعدي: (أمرهم بدعائه: دعاء العبادة، ودعاء المسألة. ووعدهم أن يستجيب لهم. وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم).

- أن في الدعاء مفارقة لبعض مواضع غضبه سبحانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من لم يسأل الله غضب الله عليه)، قال المظهري: (الله تعالى يغضب على من لم يطلب منه حاجة؛ لأن ترك طلب الحاجة منه كبر واستغناء، ولا يجوز للعبد ترك عرض حاجته على الله تعالى، بل ليعرض حاجته على الله، وليطلب منه قضاءه؛ ليكون هذا اعترافاً من العبد بفقره وعجزه، وبقدرة الله على قضاء الحوائج وبكرمه وغناه).

وقال الطيبي: (معناه: أن من لم يسأل الله يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه، والله يحب أن يسأل).

وقديما قيل:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

- أن في الدعاء صدق في الإقبال على الله تعالى، وحرص على جلب الخير ودفع الضر، ومفارقة للعجز و مباعدة للتكاسل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء)، فإن في ذلك عجز عن كل خير بأيسر عمل.

قال المناوي: ((وأعجز الناس من عجز عن الدعاء) أي: الطلب من الله تعالى حيث سمع قول ربه ادعوني فلم يدعه مع فاقته وعدم المشقة عليه فيه).

وقال الصنعاني: (فإنه لا يتركه إلا أعجز الناس؛ إذ لا مشقة فيه ولا كلفة. وهو عبادة محبوبة لله تعالى. وفيه: رد على من زعم أن الأولى ترك الدعاء).

- أن في الدعاء رفع للبلاء ودفع للشرور، كما في حديث عائشة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ قال: لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة).

وحديث سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يرد القضاء إلا الدعاء)، وجاء من حديث ثوبان مرفوعا: (ولا يرد القدر إلا الدعاء).

قال البيضاوي: (القضاء قسمان: جازم لا يقبل الرد والتعويق. ومعلق: وهو أن يقضي الله أمراً كان مفعولا ما لم يرده عائق، وذلك العائق لو وجد كان ذلك أيضاً قدراً مقضياً... وقيل: المراد

بالقضاء: ما يخاف نزوله، وتبدو طلائعه وأمارته من المكاره والفتن، ويكون القضاء الإلهي جارياً بأن يصان عنه العبد الموفق للخير والدعاء، فإذا أتى به العبد حرس من حلول ذلك البلاء عليه، فيكون دعاؤه كالراد لما كان يظن حلوله ويتوقع نزوله. وقيل: الدعاء لا يدفع القضاء النازل، لكن يسهله ويهونه من حيث أنه يتضمن الصبر عليه والتجمل فيه والرضا بالقضاء والرجوع إلى الله).

وقال التورِبِشتي: (الذي يهتدى إليه من تأويل هذا الحديث وجهان:

أحدهما: أن نقول: أراد بالقضاء ما يخافه العبد من نزول المكروه، ويتوقاه، فإذا وفق العبد للدعاء دفع الله عنه ذلك، ويكون تسميته بالقضاء على المجاز والاتساع على حسب ما يعتقده المتوقى عنه. ويزيد هذا المعنى وضوحا حديث أبي خزامة عن أبيه: يا رسول الله! أرأيت رقى نسترقيها، وتقاة نتقيها، ودواء نتداوى به، أيرد ذلك من قدر الله شيئا؟، قال: (هي من قدر الله).

ثم إنا نقول: كما لم يحسن منهم ترك التداوي مع إيمانهم بالقدر - لم يجز لهم ترك الدعاء وقد أمر الله به، مع علمهم بأن المقدور كائن؛ لأن حقيقة المقدور وجودا وعدما مخفية عنهم.

والآخر: أن نقول: إن كان المراد من القضاء الحقيقة، فالمراد من الرد تهوينه وتيسير الأمر فيه؛ حتى يكون القضاء النازل كأنه لم ينزل ... فيسهل عليه تحمل ما نزل به من البلاء فيصبره عليه أو يرضيه به؛ حتى لا يكون في نزوله متمنياً بخلاف ما كان مما لم ينزل، بأن يصرفه عنه، أو يمده قبل النزول بتأييد منه، يخفف معه أعباء ذلك إذا نزل به).

وقال المناوي: (أراد بالقضاء هنا الأمر المقدر لولا دعاؤه، أو أراد برده تسهيله فيه حتى يصير كأنه رد).

وقال ابن عثيمين: (من أثر الدعاء إذا دعوت الله تعالى بكشف ضر فهذا قد كتب في الأزل في اللوح المحفوظ أن الله تعالى يرفع هذا الضر عنك بدعائك فكله مكتوب).

- أن في الدعاء اتسام بصفات عباد الله المخلَصين، كما قال جل شأنه، عن أنبيائه عليهم السلام: ﴿إِنّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، فإنه تعالى لما ذكر بعض الأنبياء والمرسلين، كلا على انفراده، عقب ذلك بالثناء عليهم عموما، فذكر من أوصافهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ قال السعدي: (أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة -يقدرون عليها- إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون،﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم).

خامساً: أنواع الدعاء:

الدعاء -عند التحقيق- نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وقد جعله الزجاج ثلاثة أنواع، إذ قال: (ومعنى الدعاء لله عز وجل على ثلاثة أضرب، فضرب منها توحيده والثناء عليه، كقولك: يا الله، لا إله إلا أنت، ...وضرب ثان، هو: مسألة الله العفو والرحمة، وما يقرب منه، كقولك: اللهم اغفر لنا. وضرب ثالث، هو مسألته من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً وما أشبه ذلك).

والثاني والثالث، هما دعاء مسألة، وإن تعلق ثانيه بمسألة سلامة الآخرة و فلاحها، وثالثه بطلب خير الدنيا.

وجعل ابن القيم الدعاء ثلاثة أنواع، إذ قال: (قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد)، والثناء على الباري سبحانه ضرب من ضروب التعبد، فعادت القسمة إلى ثنائية: دعاء تعبد، ودعاء مسألة.

ودعاء **العبادة**، هو: (عبادة الله تعالى بأنواع العبادات القلبية، والقولية، والفعلية كالمحبة، والخوف، والرجاء والصلاة، والصيام، والذبح، وقراءة القرآن، وذكر الله تعالى وغيرها، وهو بهذا الدين كله، ظاهره وباطنه، وسمي هذا النوع دعاء؛ باعتبار أن العابد لله بهذه العبادات طالب وسائل لله في المعنى، لأنه إنما فعل هذه العبادات رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فهو داع لله تعالى بلسان حاله، لا بلسان مقاله)، (فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟، لكان قلب

المؤمن ناطقاً . قبل أن يجيبك لسانه -: بأن قصدي من ذلك رضى ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه).

ودعاء المسألة، هو: أن يطلب العبد من ربه حاجته، كجلب مرغوب أو دفع مرهوب، ومن ذلك سؤاله الله تعالى مغفرته ورحمته وهدايته وسعته وعفوه وتوفيقه ورضاه، وجلب كل ما ينفعه في دنياه وأخراه، ودفع كل ما يضره فيهما، وعرفه ابن تيمية بقوله: (هو: طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه)، ثم قال: (وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر. ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا).

يقول الشيخ السعدي: (والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء).

ويدل على عموم ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، أي: أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، فسمى ذلك عبادة، وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسؤوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال؛ فكل عابد في الحقيقة سائل، وكل سائل، فهو عابد بسؤاله، وبما تهيأ به لإجابة دعائه من إخلاص عمله لله تعالى وامتثال أمره تعالى واجتناب ما يغضبه، وتلك هي العبادة.

وقد جلى ابن القيم العلاقة بين نوعي الدعاء بصورة أوضح، فقال: (بيد أن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة. ويدعى خوفا ورجاء دعاء

العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة).

ودعاة الثناء والتعظيم والعبادة من حيث الجنس والإطلاق أفضل من دعاة المسألة والطلب، لأن التعبد هو الغاية التي خلق من أجلها الخلق. ولأن العبادة حق الرب ووصفه، بينما دعاء المسألة حظ العبد ومصلحته والشيء يشرف بمتعلقه.

وفي ذلك يقول ابن تيمية: (جنس تلاوة القرآن أفضل من جنس الأذكار، كما أن جنس الذكر أفضل من جنس الدعاء، كما في الحديث الذي في صحيح مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: (أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، وفي الترمذي، عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: (من شغله قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين).

وهذا لا يمنع أن يكون المفضول أفضل من الفاضل في بعض المواضع والأزمنة والأحوال، كما يفضل دعاء السجود وآخر التشهد والدعاء بعد رمي الجمار قراءة القرآن، تبعاً لأمر الله و مطلوبه في ذلك الوقت أو الحال. وحين يكون المرء عاجزاً عن فعل الفاضل أو منهياً عنه أو لا يفهمه أو لا يجتمع إخلاص قلبه وتقواه في لحظتها به، أو لا ترتفع الوساوس عنه به.

وفي تقرير ذلك، يقول ابن تيمية: (العمل المفضول قد يقترن به ما يصيره أفضل من ذلك، ... مثل أن يقترن إما بزمان، أو بمكان، أو عمل يكون أفضل، ... فإذا كره الأفضل في حال حصول مفسدة كان المفضول هناك أفضل بل هو المشروع).

ويقول: (... ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر أنفع له من القراءة، ومنهم من يكون اجتهاده في الدعاء لكمال ضرورته أفضل له من ذكر هو فيه غافل.

والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له، وتارة هذا أفضل له. ومعرفة حال كل شخص وبيان الأفضل له لا يمكن ذكره في كتاب، بل لا بد من هداية يهدي الله بها عبده إلى ما هو أصلح. وما صدق الله عبد إلا صنع له).

ويقول ابن القيم: (فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه).

* * *

سادساً: حكم الدعاء:

دعاء السؤال (المطلق والمشروع) مشروع باتفاق، والأصل فيه الاستحباب، قال النووي: (المذهب المختار الذي عليه الفقهاء والمحدّثون وجماهير العلماء من الطوائف كلها من السلف والخلف: أن الدعاء مستحبّ).

وقال ابن تيمية: (وأما الدعاء فلم يجب منه دعاء مفرد أصلاً).

ويقول الطيبي: (المذهب المختار الذي عليه الفقهاء والمحدثون، وجماهير العلماء من الطوائف كلها سلفاً وخلفاً: أن الدعاء مستحب بدليل الكتاب والسنة).

ويقول القرافي: (الأصل في الدعاء الندب؛ لأنه من حيث ذاته طلب من الله تعالى وكل ما هو طلب منه تعالى مشتمل على خضوع العبد لربه وإظهار ذلته وافتقاره إلى مولاه وكل مشتمل على ذلك مأمور به أمر ندب، وقد يعرض له من متعلقاته ما يوجبه أو يحرمه).

ويقول د. العروسي: (لم يعهد من السلف من قال بوجوب الدعاء المطلق).

ولا يشكل على هذا التقرير الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]، فإنها من جهة قد جاءت في سياق الحث على الدعاء بدلالة قوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وأيضاً فالدعاء في الآية مشتمل على دعاء التعبد والخضوع بدلالة قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾، وهو متوزع بين الوجوب والاستحباب باتفاق كما لا يخفى.

وأما الوعيد في الآية فهو خاص بمن ترك الدعاء أنفة وتكبرا، وهذا ليس بخلق المسلم، فلا يشمل من تركه من غير قصد الاستكبار.

ولا يشكل عليه أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء:٣٢]،فهو من تعليم العباد جوالب الخيرو صوارف الشر.

ولا قوله عز وجل: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥]، فإن الآية في سياق تعليم العباد كيفية الدعاء وصفته، ونهيهم عن التعدي فيه؛ بترك شرائطه وآدابه المشروعة.

ولا قوله ﷺ: (من لم يسأل الله يغضب عليه)، لأن المقصود به إما ترك السؤال تكبراً، أو تركه بإطلاق، فيكون المراد ترك جنس الدعاء، لا تركه في موضع دون موضع، أو تركه في المواضع التي يجب فيها، لأن الدعاء كما - جاء في الموسوعة الكويتية - : قد يكون (واجباً؛ كالدعاء الذي تضمنته سورة الفاتحة أثناء الصلاة. وكالدعاء الوارد في صلاة الجنازة. وكالدعاء في خطبة الجمعة، عند بعض الفقهاء).

وقال ابن تيمية: (القاعدة الكلية في شرعنا: أن الدعاء إن كان واجباً أو مستحباً فهو حسن يثاب عليه الداعي. وإن كان محرماً -كالعدوان في الدعاء- فهو ذنب ومعصية. وإن كان مكروهاً فهو ينقص مرتبة صاحبه. وإن كان مباحاً مستوي الطرفين فلا له ولا عليه).

وقال د. العروسي: (الراجح أن الدعاء تجري فيه الأحكام الخمسة، فتارة يجب، وتارة يستحب، وتارة يباح، وتارة يكره، وتارة يحرم، فتختلف فيه الأحكام بحسب الاعتبارات، وأما الأصل فيه بدون الاعتبارات: الندب والاستحباب).

ثم قال: (الدعاء الواجب ينقسم إلى قسمين: واجب باتفاق، وواجب مختلف فيه، فمن الواجب المتفق عليه: دعاء الفاتحة والتوبة والاستغفار. ومن الواجب المختلف عليه: الدعاء الذي في آخر التشهد، ودعاء دخول المسجد، والصلاة على النبي ﷺ).

ثم قال: (وأما الدعاء المستحب فهو كثير جداً، وغالب الأدعية المأثورة من هذا الباب، نحو أدعية النوم والاستيقاظ، والدعاء عقب الوضوء، والدعاء بين الأذان والإقامة، ودعاء الاستخارة، وبالدعاء عقبها، والعلماء لم يقولوا بالوجوب مع ورود الأمر به).

ثم قال: (وأما الدعاء المحرم فهو يتنوع إلى نوعين، وذلك أن التحريم تارة من جهة المطلوب، وتارة من جهة نفس الطلب)، ومن أمثلة المحرم من جهة المطلوب، أن يطلب العبد غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى. ومن أمثلة المحرم من جهة نوع الطلب، أن يسأل الله تعالى ما يضره في دنياه أو آخرته. ومثل أن يدعو على غيره دعاء منهياً عنه. ومثل أن يدعو بكلمات فيها اعتداء.

ثم قال: (وأما الدعاء المكروه فهو مثل الدعاء الذي يشتمل على السجع المتكلف والتشدق و التشهق).

ثم قال: (وأما الدعاء المباح، فهو كالدعاء الذي لطلب الفضول التي لا معصية فيها إذ لم يكن طلبا لهذا المباح للاستعانة به على طاعة الله).

وأصل المسألة - موضع النقاش- : إنما كان في الدعاء المطلق المشروع، وأنه بين مندوب في الأصل وواجب في أحوالٍ، وأما جعل الدعاء بالمباح مجرد مباح لا عملاً مشروعاً، ففيه نظر، لكونه سؤال لله وطلب منه وفيه إظهار لغناه سبحانه وتجلية لحاجة السائل إليه، وطلب الله المليك القادر الغني الكريم مشروع في كل حال بدلالة قوله سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، أيا كان الأمر المطلوب، وإن اختلفت درجة المطلوبية وأهميته في منظور الشريعة، والله أعلم.

* * *

سابعاً: صيغ الدعاء:

يأتي دعاء المسألة على صيغتين:

صيغة الطلب، سواء أكان المطلوب جلب خير أو دفع ضر أو شر، كقوله سبحانه- في طلب جلب الخير- : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر:٢٥٠].

وكقوله سبحانه -في طلب دفع الضر أو الشر-: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[البقرة:٢٨٦].

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[آل عمران:٨].

وقوله عزوجل: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[الأنبياء:٨٩].

وأغلب أدعية الخلق من هذا النوع، وفي **تعليل سر ذلك يقول ابن تيمية: (**ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه**)**.

وصيغة الخبر، المراد به الإنشاء، كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[الرعد:٢٤]، أي: سلمكم الله بما صبرتم، وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤]، وهذا أدخل في حسن الأدب والاتكال على علم الله وكرمه وسعة رحمته.

قال السعدي: (أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً).

والأكمل ما كان جامعا بين الأنواع كلها، من وصف حال السائل وفقره واضطراره، ووصف حال المسؤول وكرمه والثناء عليه بجزيل إحسانه، ثم الطلب الصريح والسؤال المباشر.

قال ابن تيمية: (فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضي للسؤال والإجابة، ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال، فيتضمن السؤال والمقتضى له والإجابة؛ كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه -لما قال له علمني دعاء أدعو به في صلاتي-، فقال: قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)، أخرجاه في الصحيحين، فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب).

ويقول ابن القيم: (الدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل. فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه، وأوصاف المسؤول مقتضى من الله، فاجتمع المقتضي من السائل والمقتضى من المسؤول في الدعاء، وكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفة وعبودية، وأنت ترى في المشاهد- ولله المثل الأعلى- أن الرجل إذا توسل إلى من يريد

معروفه بكرمه وجوده وبره وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته كان أعطف لقلب المسؤول وأقرب لقضاء حاجته).

* * *

ثامناً: الناس ونوعي الدعاء:

ينقسم الناس من جهة الجمع بين دعاة العبادة (عبادة الله والخضوع لأمره)، وبين دعاء المسالة (الاستعانة بالله وطلبه وحسن التوكل عليه) إلى أصناف، فصنف أحسن الجمع بين الأمرين، وهم أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة :٥].

وأهل قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، وهم خير الناس وأفلحهم. وأرشد هؤلاء وأفقههم من كان عامة استعانته تتمثل بسؤال الله الإعانة على مرضاته وتحقيق مراده، لأنهم عنوا بأنفع الدعاء وأجله.

يقول ابن تيمية: (تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته).

ويقول ابن القيم: (أنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه).

وصنف معرض عن عبادة الله ومعرض عن سؤاله سبحانه والاستعانة به، وهؤلاء شر الناس وأشقاهم.

قال ابن تيمية: (وهم فريقان: أهل دنيا وأهل دين، فأهل الدين منهم، هم: أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله، ويستعينون غير الله، ... وأهل الدنيا منهم: الذين يطلبون ما يشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب).

وصنف له نوع عبادة بلا استعانة، كمن لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من سؤال الله والتوكل عليه والاستعانة به، لتعلق قلوبهم بما خلق من أسباب، وغفلتهم عن خالق الأسباب ومدبر الخلائق سبحانه.

وصنف ضعيف العبادة لله، ولكنه عظيم الاستعانة بالله على حظوظ نفسه وأمور دنياه، فهم يشهدون جليل لطف الله وواسع وكرمه وحسن تدبيره وعظيم تفريجه، ولا ينظرون إلى أمر الله ونهيه وما فيه غضبه ومرضاته، فأصلحوا دنياهم وضاعت عليهم أخراهم، إلا أن يتم الله عليهم كرمه، ما دام أصل الإيمان موجوداً لديهم.

* * *

تاسعاً: آداب الدعاء:

خير الدعاء ما تضمن شروط الدعاء، واكتملت فيه آدابه، وخلا من موانع إجابته، وسأورد هنا آداب الدعاء بصورة مشتملة على ذكر شروطه ومنبهة على موانعه، طلباً للاختصار، وفراراً من التكرار نتيجة التداخل الكبير بينها، وآداب الدعاء على نوعين:

- آداب عدمية
- وآداب وجودية

فمن الآداب العدمية:

١. عدم اعتداء الداعي في دعائه، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥]، أي: في الدعاء ولا في غيره، قاله ابن عباس.

وقال ابن جريج: (من الاعتداء: رفع الصوت والنداء بالدعاء).

وقال أبو مجلز: (﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء).

وقال السعدي: (﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه).

وقد عدد د. العروسي من صور الاعتداء في الدعاء: الشرك في الدعاء، والابتداع فيه، وسؤاله تعالى ما لا يليق بعبدٍ سؤاله، كسؤال منازل الأنبياء، وسؤاله المحال، أو المعونة على الحرام، أو ما يناقض حكمته تعالى، أو خلاف ما أخبر به. وكالإخلال بحسن الأدب مع الله، كالصياح في الدعاء، أو الطلب من غير تضرع، أو الإغراق في تسجيع الدعاء وتكلف صنعة الكلام له بما

يلهي الداعي عن مقصوده، أو تكثير الكلام الذي لا حاجة له، كمن يسأل الله نعيم الجنة وبهجتها وزينتها وزخرفها وحليها وأسوارها وهكذا.

٢. **ترك التلبس بالحرام:** طعاماً أو شراباً أو لباساً، فإن من شؤم التلبس به عدم إجابة الدعاء. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر (الرجل، يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك)، قال ابن هبيرة: (أي: كيف يستجاب له، ومتى يستجاب له، والقوة التي مد بها يديه نشأت عن مخالفة وعصيان).

وقال ابن رجب: (هو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام).

وقال: (وأما ما يمنع إجابة الدعاء، فقد أشار ﷺ إلى أنه التوسع في الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وتغذية).

وقال المظهري: (بيَّن أن دعاءَ من يكون طعامُه وشرابُه ولباسُه حرامًا قلَّ ما يُستجابُ له).

٣. **عدم استعجال الإجابة**، حتى لا يقنط أو يسأم ويترك الدعاء، أو يسيء الظن بالله تعالى؛ فيكون كالمبخل له جل في علاه، أو يكون ممن يبخس الدعاء أثره ومنزلته أو يمنَّ بل عليه أن يلازم الطلب دون تعجل الإجابة، ويثق بالله ويحسن الظن به، ويعرف بأن الله قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦]، فأمر بالدعاء ورغب فيه ووعد بالإجابة عليه، ووعد الله لا يخلف، ولكنه تعالى لتمام رحمته وكمال علمه ووافر حكمته يختار لعبده ما هو الأهيا له والأوفق.

وقد جاء النهي عن تعجل الإجابة في قوله ﷺ: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي)، وفي رواية: (لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟، قال: يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء).

قال ابن بطال: (المعنى: أن يسأم فيترك الدعاء، فيكون كالمانِّ بدعائه، أو أنه أتى من الدعاء بما يستحق به الإجابة فيصير كالمبخل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء، وفي الحديث من آداب الدعاء أنه يجتهد في الطلب، ولا ييأس من الإجابة، لما في ذلك من الاستسلام وإظهار الافتقار).

ونبه القاضي عياض على أنه يجب على العبد أن يكون أبداً في دعائه متسماً بإظهار الحاجة والطاعة له ومتحلياً بسمة العبودية.

وقال ابن هبيرة: (في هذا الحديث من الفقه: إشعار العبد بأن الله سبحانه يجيب كل داع على الإطلاق).

وقال بعد أن ضروباً من وجوه الحكمة في تأخير إجابة الداعي: (فإذا غفل الداعي عن حكمة الله تعالى التي هذه الوجوه التي ذكرناها بعضها وجزء منها، فنسب تأخير الدعاء إلى ما يناسب سوء اختياره ولا يناسب جود الله وحكمته، فطفق يقول لنفسه أو لغيره: دعوت فلم يستجب لي، مثرياً بذلك لجهله، ثم إنه يغاضب بترك الطلب ومراجعة السؤال جهلاً منه وقلة فقه، فحذر رسول الله ﷺ من ذلك).

وقد جاء في تبيين أن الله يختار لعبده ما هو الأصلح له والأتم، قوله ﷺ: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذا نكثر، قال: الله أكثر)، وأخرجه الطبراني، وعنده: (أو يغفر له بها ذنباً قد سلف)، بدل قوله: (أو يكشف عنه من السوء مثلها).

قال الأثيوبي: (فيه دليل على أنه لا بدّ من الإجابة على إحدى هذه الأوجه الثلاثة).

وقال البراك: (فإجابة الدعاء أعم من قضاء الحاجة، فلا يلزم من عدم حصول المطلوب أن الله لم يجب دعاءك، فتقول: إن الله لم يستجب لي!، وما يدريك؟ لعل الله أعطاك إحدى هذه الثلاث).

٤. **عدم تعليق الدعاء على المشيئة**، كأن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم هب لي إن شئت، بل يعزم في المسألة ويعظم الرجاء ويلح في الطلب ويكرره ويبالغ فيه، من غير تردد ولا تراخي.

وقد جاء النهي عن ذلك من حديث أنس رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء، ولا يقولن أحدكم: إن شئت فأعطني، فإن الله لا مستكره له).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال: لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له).

يقول ابن هبيرة: (قوله عليه السلام: (لا مكره له)، فإنه يعني به ﷺ أنه لم يكن ما وعد به جل جلاله من قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، عن سبيل إكراه، لكنه عن فضل

منه ولا يغيض، وجودٌ لا يقلع، فإذا قال العبد في دعائه: إن شئت يا رب، فإنه كلام من لم يفهم أن الله سبحانه استدعى سؤال كل طالب بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فهو قد شاء وسبق استدعاؤه الطلب من الطالبين والسؤال من السائلين؛ حتى أنه سبحانه وتعالى قد جعل إجابته الداعين باب معرفة معروفة منه؛ فإنه سبحانه وتعالى يجيب الدعاء حتى أنه قد يجيب الكافر إقامة للحجة عليه، وليكون المؤمن عظيم الوثوق بإجابة دعائه إذا رأى الطلب من الله سبحانه لا يكدى بأحد).

ويقول القاضي عياض: (قيل كراهة الاستثناء هنا لوجهين، أحدهما: أن مشيئة الله ثابتة معلومة، وأنه لا يفعل من ذلك إلا ما شاء، وإنما يتحقق استعمال المشيئة في حق من يتوجه عليه الإكراه، والله منزه عن ذلك ....، والوجه الآخر: أن في هذا اللفظ ظهور الاستغناء؛ إذ لا يستعمل هذا اللفظ إلا فيما لا يضطر إليه الإنسان، فأما ما يضطر إليه فإنه يعزم عليه ويلح فيه، ويبين -أيضا- هذا التأويل قوله في الرواية الأخرى: (فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)).

وأشار د. العروسي إلى أن تعليق الدعاء لا يليق بالبائس الفقير ذي الحاجة الشديدة، وإنما يليق بمن يكون مستغنٍ عن الإجابة، ولا أحد يستغني عن فضل الله وجوده.

وإلى أن في تعليق الدعاء ضعف رجاء، فلا يصدق في الطلب ولا يلح في السؤال.

وإلى أن الطلب بالتردد يشتت العزيمة ويفتر الهمة.

وإلى أن في عدم الجزم سوء ظن بالله، لأن (عدم إجابته إما لعجز المدعو، أو بخله، أو عدم علمه بالاهتبال، وكل ذلك محال على الله تعالى).

٥. **عدم الغفلة في ثنايا الدعاء**، فإن الغفلة والالتهاء والسرحان وعدم إقبال القلب فيه على الله تبطل قوته وتضعف تأثيره، وقد نبه النبي ﷺ على ذلك وحذر منه، فقال: (واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه)، أي: غافل عن معنى الدعاء وعن قصد الله به ورجاء استجابته.

ومعنى: (لاه): أي: سارح عنه، مشغول الفكر بغيره، غير ملتفتٍ إليه، ولذلك قال الصنعاني: (يتعين على من يدعو: إحضار قلبه وتدبر ما يقوله، فهذا شرط من شروط الإجابة).

ومن الآداب الثبوتية التي يُطلب وجودها في ثنايا الدعاء أو يحسن ما يلي:

١. **إخلاص الدعاء لله تعالى**، وإفراده به، لكونه عبادة، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وأريد به وجهه سبحانه، والنصوص عديدة في تقرير هذه المسألة وتجليتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:١٤]، فأمر تعالى بتخليص القصد لله في الدعاء، فإجابته مشترطة به.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : (إن الله لا يقبل من مسمع، ولا مراء، ولا لاعب، ولا داع، إلا داعياً دعاء ثبتاً من قلبه).

وقال أبو العباس القرطبي: (فمن شرط الداعي بأن يكون عالماً بأنه لا قادر على حاجته إلا الله تعالى، وأن الوسائط في قبضته، ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة).

ويقول السعدي: (وهذا شامل: لدعاء العبادة ودعاء المسألة).

وقوله سبحانه -في الحديث القدسي-: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك)، قال الصنعاني: (ومعناه: أنا غني عن المشاركة

وغيرها، فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد: أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، بل هو آثم به).

٢. **التوبة من الذنوب** -الظاهرة والباطنة-، ومفارقتها، فإن المعاصي تغضب الله وتسخطه، وتستوجب العقوبة إن لم يعفُ سبحانه.

فعلى من ترجى خير الله ونفعه وإجابته ودفع الضر عنه، أن يتخلى عن ذنوبه قبل سؤاله، فإن ذلك أرجى لإجابة الله تعالى له وأحرى.

٣. **الدعاء بتضرع وتذلل وتخشع**، فإن ذلك، -كما يقول ابن تيمية-(هو روح الدعاء ولبه و مقصوده).

وفي الحث على ذلك يقول تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥] فالدعاء المأمور به هنا، هو الدعاء المقيد بصفتي التضرع والخفية، قال الزجاج: (﴿تَضَرُّعًا﴾: تملقاً).

وقال ابن كثير: (﴿تَضَرُّعًا﴾: معناه: تذللاً واستكانة).

وقال الواحدي: (التضرع: التذلل والتخشع، وهو إظهار الذل الذي في النفس، من قولهم: ضرع فلان لفلان، وتضرع له إذا ما تخشع له وسأله أن يعطيه).

وعدَّ ابن تيمية ترك التضرع في حال الدعاء من العدوان المنهي عنه، فقال: (ومن العدوان: أن يدعوه غير متضرع؛ بل دعاء هذا كالمستغني المدلي على ربه. وهذا من أعظم الاعتداء؛ لمنافاته لدعاء الذليل. فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد).

ويقول ابن القيم: (ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية، عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾).

ودعاء التضرع والتذلل بخوف ورجاء، هو دعاء الأنبياء والمقربين، كما قال تعالى عن زكريا وأهل بيته الكرام: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، قال السعدي: (أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم).

٤. **تكرار الدعاء والإلحاح في الطلب**، وقد كان النبي ﷺ يكرر الدعاء في الموضع الواحد ثلاثاً، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ كان يعجبه أن يدعو ثلاثاً، ويستغفر ثلاثاً)، صححه الأرناؤوط.

وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ، ثم دعا، ثم دعا).

ومن مظاهر الإلحاح في الدعاء: تطويله وتفصيله، يقول ابن القيم: (الجملة الطلبية إذا وقعت موقع الدعاء والسؤال كان بسطها وتطويلها أنسب من اختصارها وحذفها، ولهذا يشرع تكرارها وإبداؤها وإعادتها، فإنها دعاء، والله يحب الملحين في الدعاء.

ولهذا تجد كثيرا من أدعية النبي ﷺ فيها من بسط الألفاظ وذكر كل معنى بصريح لفظه دون الاكتفاء بدلالة ....، كقوله ﷺ في حديث علي رضي الله عنه الذي رواه مسلم في صحيحه:

(اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت)، ومعلوم أنه لو قيل اغفر لي كل ما صنعت كان أوجز، ولكن ألفاظ الحديث في مقام الدعاء والتضرع وإظهار العبودية والافتقار واستحضار الأنواع التي يتوب العبد منها تفصيلاً أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار، ... وهذا كثير في الأدعية المأثورة فإن الدعاء عبودية لله تعالى وافتقار إليه وتذلل بين يديه، فكلما كثَّره العبد وطوله وأعاده وأبداه ونوع جمله كان ذلك أبلغ في عبوديته وإظهار فقره وتذلله وحاجته، وكان ذلك أقرب له من ربه، وأعظم لثوابه).

٥. **ملازمة الدعاء في حال الرخاء والشدة والسعة والضيق**، فإن من تودد إلى الله وتذلل له في وقت سعته ويسره وجد ثمرة ذلك عناية وحفظاً وتفريجاً وإجابة في وقت شدته، فإن الله شكور حميد، ومصداق ذلك، قوله ﷺ: (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء).

وقوله ﷺ: (تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة)، والمراد بالتعرف هنا: ذلك التعرف الخاص الذي يقتضي: (ميل القلب إلى الله بالكلِّيَّة والانقطاع إليه والأنس به والطّمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له)، وذلك التعرف المشار إليه في الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)، وفي رواية: (ولئن دعاني لأجيبنَّه).

وقد جاء رجل إلى أبي الدرداء رضي الله عنه، فقال: (أوصني، فقال: اذكر اللَّه في السراء، يذكرك اللَّه عز وجل في الضراء).

وعنه رضي الله عنه قال: (ادع اللَّه في يوم سرائك؛ لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك).

ومن جليل قول ابن رجب: (وفي الجملة: فمَن عامل الله بالتَّقوى والطَّاعة في حال رخائه، عامله اللهُ باللُّطف والإعانة في حال شدَّته).

٦. **خفض الصوت بالدعاء**، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (﴿وَخُفْيَةً﴾: السر)، وقال الواحدي: (الخُفية: خلاف العلانية، وهو من أخفيت الشيء إذا سترته، ... قال أهل العلم: السنة والأدب في الدعاء أن يكون خفياً لهذه الآية).

وقال ابن المنير: (وحسبك في تعيين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه).

ولقوله ﷺ لأصحابه -حين كانوا في سفر فأشرفوا على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير-: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم).

قال الخطابي: ((قوله: (اربعوا على أنفسكم)، يريد أمسكوا عن الجهر، وقفوا عنه).

وقال ابن الملقن: (فيه: كراهية رفع الصوت بالدعاء، وهو قول عامة السلف من الصحابة والتابعين).

وعن سعيد بن المسيب قال: (ثلاث مما أحدث الناس -وذكر منها-: رفع الصوت عند الدعاء).

وذُكر عن مجاهد: (أنه رأى رجلاً يرفع صوته بالدعاء فحصبه).

وقال الحسن: (لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما تُسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[الأعراف:٥٥]).

وقال أحمد: (كانوا يكرهون أن يرفعوا أصواتهم بالدعاء).

وذكر ابن تيمية عشر فوائد لإخفاء الدعاء، هي:

أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

وأنه أدخل في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى.

وأنه أبلغ في التضرع والخشوع، وذلك هو روح الدعاء ولبه و مقصوده.

وأنه أبلغ في الإخلاص.

وأنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه.

وأنه يشير إلى شعور العبد بقرب ربه سبحانه منه، وفي هذا السياق أثنى الله على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[مريم:٣]، فهو عليه السلام لما استحضر قلبه قرب الله عز وجل منه أخفى دعاءه ما أمكنه.

وأنه: أدعى إلى دوام الطلب والسؤال؛ فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه.

وأن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات.

وأنه أبعد عن الحسد؛ لأن لكل نعمة حاسد، ولهذا يوصي العارفون بحفظ السر مع الله وألا يُطلِع المرء سره معه على أحد من الخلق.

وأن الدعاء ذكر، والله قد أمر نبيه ﷺ بأن يذكره في نفسه، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[الأعراف:٢٠٥]، فالمسر بدعائه متأسٍ بنبيه ﷺ.

ولخص د. العروسي المسألة، فقال: (الأفضل هو خفض الصوت، ولكن في بعض الأوقات يأتي عارض يجعل الجهر أولى، مثل قصد تعليم جاهل أو طرد نحو نعاس أو كسل عن الداعي نفسه، أو إدخال سرور على قلب مؤمن، او تنفير مبتدع عن بدعة، أو نحو ذلك).

٧. **التوسل إلى الله تعالى في الدعاء بأسمائه وصفاته**، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فهو دليل على أن من أفضل الدعاء أن يدعو المرء ربه بأسمائه الحسنى، كما ذكر الله وأمر به، وفي دعائه بها تعظيم له تعالى بذكرها.

قال الزجاج: (لا ينبغي أن يدعوه أحد بما لم يصف نفسه به، أو لم يسم به نفسه، فيقول في الدعاء. يا الله يا رحمن يا جواد، ولا ينبغي أن يقول: يا سبحان، لأنه لم يصف نفسه بهذه اللفظة).

وأوضح ابن القيم بأن دعاؤه تعالى بأسمائه الحسنى مرتبتان: (أحدهما: دعاء ثناء وعبادة. والثاني: دعاء طلبٍ ومسألة. فلا يُثْنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، ولذلك لا يُسئل إلا بها).

وقال السعدي- عند قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾- (هذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلا: اللهم اغفر لي وارحمني،

إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَلَيَّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف، ونحو ذلك).

وسواء أوقع التوسل بأسماء الله وصفاته في صدر الدعاء أو عقبه، فلا فرق، فقد جاء هذا وهذا، فمن مجي التوسل عقب الدعاء قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأعراف:١٨٠]، ومن مجيئه في صدر الدعاء قوله ﷺ: (اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني).

وقوله ﷺ: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين).

وجاء التوسل بأسمائه تعالى وصفاته في مفتتح الدعاء وختامه في مثل دعائه ﷺ: (اللهم لك الحمد، أنت نورُ السماواتِ والأرض، ولك الحمد، أنت قَيّمُ السماواتِ والأرض، ولك الحمد، أنت ربُّ السماواتِ والأرض ومَن فيهن، أنت الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، وقولُك الحقُّ، ولِقاؤك الحقُّ، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حق، والنبِيُّون حق، والساعةُ حق، اللهم لك أسلَمتُ، وبك آمَنت، وعليك توكَّلت، وإليك أنَبت، وبك خاصَمت، وإليك حاكَمت، فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرت، وما أسرَرتُ وما أعلَنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت).

٨. **الدعاء بجوامع الكلم**، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك).

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها، وهي تصلي: (عليك بالجوامع الكوامل)، فلما انصرفت عائشة سألته عن ذلك؟، فقال لها: (قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه، وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه، وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشداً).

وفي المراد بجوامع الدعاء، يقول المناوي: هي (ما جمع مع الوجازة خير الدنيا والآخرة، نحو: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[البقرة:٢٠١]، أو هو ما يجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، أو ما يجمع الثناء على الله وآداب المسألة)، والأول أوجه، وأنه ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه، لأنه ﷺ كان قد أوتي جوامع الكلم، فكان ﷺ يدعو بجوامع الدعاء.

وعليه: فالأصل استحباب الدعاء الجامع للمعاني والشامل للمرامي ، وفي الحث على ذلك يقول الخطابي: (وليتخير لدعائه، والثناء على ربه، أحسن الألفاظ، وأنبلها، وأجمعها للمعاني، وأبينها؛ لأنه مناجاة العبد سيد السادات الذي ليس له مثل، ولا نظير، ولو تقدم بعض خدم ملوك أهل الدنيا إلى صاحبه، ورئيسه في حاجة، يرفعها إليه، أو معونة يطلبها منه، لتخير له محاسن الكلام، ولتخلص إليه بأجود ما يقدر عليه من البيان، ولئن لم يستعمل هذا المذهب في

مخاطبته إياه، ولم يسلك هذه الطريقة فيها معه، أوشك أن ينبو سمعه عن كلامه، وأن لا يحظى بطائل من حاجته عنده)، ولله المثل الأعلى.

وقول عائشة رضي الله عنها: (ويدع ما سوى ذلك) محمول -كما يقول الزرقاني-: (على أغلب الأحوال لا كلها، فقد قال المنذري: كان يجمع في الدعاء تارة، ويفصّل أخرى).

ومن تفصيله ﷺ في الدعاء قوله ﷺ: (رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير)، فلما كان المقام مقام تودد وتلطف للرب الجليل، وموضع إظهار الخضوع والتذلل له حسن بسط الدعاء وتفصيله.

وبهذا ينتفي كون تفصيل الدعاء في سياق التودد من الاعتداء فيه متى خلا من التكلف، وإن كان الأحرى بالداعي التركيز على الجوامع، متى لم يتهيأ له داعٍ يرجح الذهاب إليه، والله أعلم.

٩. **استقبال القبلة أثناء الدعاء**، لكون جهة القبلة هي أشرف الجهات وأسماها، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء سيداً، وإن سيد المجالس قبالة القبلة).

ولأنها قبلة الدعاء، كما هي قبلة الصلاة، وقد كان النبي ﷺ يستقبل القبلة في غالب دعائه، ومن ذلك ما جاء في حديث عبد الله بن زيد (أن رسول الله ﷺ خرج إلى المصلى يستسقي، وأنه لما أراد أن يدعو، استقبل القبلة، وحول رداءه).

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (استقبل النبي ﷺ الكعبة، فدعا على نفر من قريش ...).

وحديث عمر رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، ...).

واستقبال القبلة في الدعاء: أدب لا شرط، فقد بوب البخاري في صحيحه (باب: الدعاء غير مستقبل القبلة)، وأورد فيه حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يخطب الجمعة، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يسقينا، فدعا ﷺ فقال: (اللهم أغثنا)، وهو يخطب على المنبر، ووجه للناس دون أن ينصرف إلى جهة القبلة.

وقال النووي: (ينبغي أن يكون الذاكر على أكمل الصفات، فإن كان جالساً في موضعٍ: استقبل القبلة وجلس متذللاً متخشعاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه، ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهة في حقه، لكن إن كان بغير عذر كان تاركاً للأفضل، والدليل على عدم الكراهة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾[آل عمران:١٩٠-١٩١]،... وثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن))، يريد أن جنس قراءة القرآن والذكر أعظم من الدعاء وأجل، فما ساغ فيهما ساغ في الدعاء، والله أعلم.

١٠. **الطهارة قبل الدعاء**، لحديث أبي موسى رضي الله عنه، وفيه: أن أبا عامر رضي الله عنه رماه رجل من بني جشم بسهم، فقال لأبي موسى: (يا ابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك أبو عامر: استغفر لي)، فحين بلغ النبي ﷺ خبر أبي عامر، دعا ﷺ بماء، فتوضأ منه، ثم رفع يديه، ثم قال: (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، ... اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك)، فالوضوء من أدب الدعاء، حتى يدعو المرء ربه، وهو طاهر الظاهر بالوضوء، وظاهر الباطن بالتوبة، وذلك من أكمل أحوال الداعي وأحسنها.

ومع استحسان الطهارة للدعاء، لما فيها من تكميل الحال، وكون الوضوء عبادة، فكأن المتوضيء - مع التهيؤ- يتوسل به لإجابة دعائه؛ إلا أنه أدب كمال لا شرط، ولذا فلو دعا على غير وضوء لكان في ذلك محسناً، وإن كان تاركاً للحالة الفضلى متى كان ذلك باختياره، ويسند ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: غفرانك)، وهذا دعاء على غير وضوء.

وحديثها رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه)، وجنس الذكر أجل من جنس الدعاء وأفضل لما فيه من تمجيد الرب سبحانه.

١١. **افتتاح الدعاء بالثناء على الله تعالى وتمجيده والصلاة على النبي ﷺ**، لحديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: (سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: عجلت أيها المصلي، ثم علمهم رسول الله ﷺ. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يصلي، فمجَّد الله وحمده، وصلى على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : ادع تجب، وسل تعط).

قال المظهري: (قوله: (عجلت أيها المصلي)؛ أي: تركت الترتيب في الدعاء؛ لأنه ينبغي أن يذكر الله تعالى أولاً ليحصل رضاه، ويؤدي حق نعمته عليه بتوفيقه إياه للصلاة وغيرها، ثم يصلي على النبي عليه السلام؛ لأنه هو الذي هداه إلى الصراط المستقيم، وهو الوسيلة بينه وبين الله تعالى، فإذا أدى شكر الله وشكر رسوله ﷺ فقد أدى حق الخدمة فقد استحق أن يقبل قوله، ويستجاب دعاؤه).

وقال الطيبي: (أشار ﷺ أن من شرط السائل أن يتقرب إلى المسؤول عنه قبل طلب الحاجة بما يوجب له الزلفي لديه، ويتوسل بشفيع له بين يديه؛ ليكون أطمع في الإسعاف، وأحق بالإجابة، فمن عرض السؤال قبل تقديم الوسيلة فقد استعجل).

ومن تأمل أدعية الكتاب والسنة، وجد عامتها مفتتحة بالثناء على الله وتمجيده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

وقوله ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ... فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت).

قال ابن حجر: (فيه استحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل مطلوب؛ اقتداء به ﷺ).

وقد جاء الحث على الصلاة على النبي ﷺ بين يدي الدعاء عن عمر بن الخطاب، إذ قال: (إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء، حتى تصلي على نبيك ﷺ).

وعن علي رضي الله عنه إذ قال: (كل دعاء محجوب، حتى يصلى على النبي ﷺ).

قال د. العروسي: (وقد اتفق العلماء على استحبابها في الدعاء، حتى حكى الزمخشري أن بعض العلماء أوجبها في كل دعاء)، ولا يسلم لهم ذلك الإجاب.

١٢. **رفع اليدين في الدعاء**، لحديث سلمان رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا)، قال ابن حجر: (وسنده جيد).

وقوله ﷺ: (إذا سألتم الله، فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها).

وأما مِن فعله ﷺ: فقد ثبت ذلك عنه في الاستسقاء وغيره، قال النووي: (قد ثبت رفع يديه ﷺ في الدعاء في مواطن غير الاستسقاء، وهي أكثر من أن تحصر، وقد جمعت منها نحواً من ثلاثين حديثاً من الصحيحين أو أحدهما).

وقال ابن تيمية: (وأما رفع النبي ﷺ يديه في الدعاء فهو في الحديث أكثر من أن يبلغه الإحصاء).

وقال السيوطي: (ومنه" يريد من أقسام الحديث المتواتر" ما تواتر معناه كأحاديث رفع اليدين في الدعاء، فقد روي عنه ﷺ نحو مائة حديث، فيها رفع يديه في الدعاء).

ويشكل على هذا، حديث أنس رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ لا يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، وإنه يرفع حتى يرى بياض إبطيه).

وفي الجواب عليه قال ابن رجب: (في معناه قولان:

أحدهما: أن أنسا أخبر عما حفظه من النبي ﷺ، وقد حفظ غيره عن النبي ﷺ أنه رفع يديه في الدعاء في غير الاستسقاء أيضا...

والثاني: أن أنسا أراد أنه لم يرفع يديه هذا الرفع الشديد حتى يرى بياض إبطيه، إلا في الاستسقاء).

وهذا الأخير أظهر، فإن أنسا كان كثير الخلطة بالنبي ﷺ جداً، فليس يخفى على مثله رفعه ﷺ يديه في الدعاء في غير الاستسقاء لكثرته، بل وتواتره عنه ﷺ تواتراً معنوياً، وهو ما مال إليه ابن حجر في فتحه، فإنه قال: (وعلى ذلك يحمل حديث أنس لم يكن يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء، وأنه أراد الصفة الخاصة بالاستسقاء).

ولا يشكل عليه حديث عمارة بن رؤيبة رضي الله عنه، وفيه أنه: (رأى بشر بن مروان على المنبر رافعاً يديه، فقال: قبح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بإصبعه المسبحة)، لأنه محمول – كما هو ظاهر منه-على خطبة الجمعة.

قال النووي: (فيه: أن السنة أن لا يرفع اليد في الخطبة، وهو قول مالك وأصحابنا وغيرهم وحكى القاضي عن بعض السلف وبعض المالكية إباحته؛ لأن النبي ﷺ رفع يديه في خطبة الجمعة حين استسقى، وأجاب الأولون: بأن هذا الرفع كان لعارض)، يريد بالعارض: طلب الرجل منه ﷺ وهو يخطب الاستسقاء للناس.

١٣. **تحري الأوقات الفاضلة**، والأماكن الفاضلة، والأحوال الفاضلة، فمن الأوقات الفاضلة، وقت السحر، لقوله تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٨]، والاستغفار ضرب من الدعاء.

ولقوله ﷺ: (إن الله عز وجل ينزل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟، من يسألني فأعطيه؟، من يستغفرني فأغفر له؟).

ومنها: ساعة الجمعة، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: فيه ساعة، لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئاً، إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يقللها).

وقد اختلف الناس كثيراً في تحديدها، وأرجى الأقوال أنها: ما بين جلوس الإمام على المنبر إلى حين الفراغ من الصلاة، لحديث أبي موسى رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة).

أو أنها ما بعد صلاة عصر الجمعة إلى غروب الشمس، لحديث: (إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها خيرا إلا أعطاه إياه، وهي بعد العصر). قال ابن القيم: (وهذا أرجح القولين).

وكأنه رجحه لحديث أبي سلمة بن عبد الرحمن، (أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا، فتذاكروا الساعة التي في يوم الجمعة، فتفرقوا ولم يختلفوا أنها آخر ساعة من يوم الجمعة).

ولكونه: (قول أكثر السلف، وعليه أكثر الأحاديث).

قال: (ويليه القول بأنها ساعة الصلاة، وبقية الأقوال لا دليل عليها).

ومنها: يوم عرفة، لحديث: (أفضل الدعاء: دعاء يوم عرفة)، قال ابن عبد البر: (فيه: من الفقه أن دعاء يوم عرفة أفضل من غيره ، ... وفي الحديث -أيضا- : دليل على أن دعاء يوم عرفة مجاب كله في الأغلب).

ومنها: ليلة القدر، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر، ما أقول فيها؟، قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني).

ومنها: وقت الأذان، لقوله ﷺ: (اثنتان لا تردان، أو قلَّ ما تردان: الدعاء عند النداء. وعند البأس؛ حين يلتحم بعضهم بعضاً).

ومنها: وقت ما بين الأذان والإقامة، لحديث: (إن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة فادعوا)، قال محمود السبكي: (وظاهر البينية أن وقت الإجابة يبتدئُ من انتهاء الأذان وينتهى بابتداء الإقامة).

ومنها: دبر الصلوات، قبل السلام ، لحديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال:(قيل: يا رسول الله، أي الدعاء أسمع؟، قال: جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات).

قال ابن عثيمين: (ما ورد من الدعاء مقيداً بدبر الصلاة فهو قبل السلام، وما ورد من الذكر مقيداً بدبر الصلاة، فهو بعد الصلاة).

ومنها: وقت نزول الغيث، لحديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعا: (ثنتان ما تردان : الدعاء عند النداء، وتحت المطر).

ومن الأماكن الفاضلة، التي يشرع تحري الدعاء فيها، يقول ابن تيمية: (والدعاء بالمشاعر: كعرفة، ومزدلفة، ومنى، والملتزم، ونحو ذلك من مشاعر مكة، والدعاء بالمساجد مطلقاً، وكلما فضل المسجد كالمساجد الثلاثة كانت الصلاة والدعاء أفضل)، وكأن مراده بالدعاء في المشاعر، وقت الشعيرة، لا في سائر الأوقات، وهو الظاهر.

وجاء في رسالة الحسن البصري إلى أهل مكة - كما أوردها ابن الهمام- : (أن الدعاء مستجاب هناك في خمسة عشر موضعاً: في الطواف، وعند الملتزم، وتحت الميزاب، وفي البيت، وعند زمزم، وخلف المقام، وعلى الصفا، وعلى المروة، وفي السعي، وفي عرفات، وفي مزدلفة، وفي منى، وعند الجمرات)، وبعضها يحتاج إلى دليل خاص يدل على أفضلية الدعاء فيها.

ومن الأحوال التي يشرع فيها تحري الدعاء، حال السجود، لحديث : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء).

ومنها: حال الكرب والاضطرار، لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]، ولحديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانحطت على فوة الغار صخرة من الجبل أغلقت الغار عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله تعالى، واسألوا الله بها لعله يفرجها عنكم، فدعوا الله تعالى بصالح أعمالهم فارتفعت الصخرة فخرجوا يمشون.

ومنها: حال السفر، وحال التعرض للظلم: لحديث: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده).

ومنها: حال الصيام، لحديث: (إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد).

ومنها: حال حضور أحدهم الموت، لحديث: (إذا حضرتم المريض أو الميت، فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون).

ومنها: عند شرب زمزم، لقوله ﷺ : (ماء زمزم لما شرب له).

ومنها: عند سماع صياح الديكة، لحديث: (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً).

❋ ❋ ❋

عاشراً: إجابة الدعاء:

لما كان الدعاء نوعين: دعاء ثناء وعبادة، ودعاء مسألة كانت الإجابة على نوعين: إجابة إثابة، وإجابة عطاء، فمن عمل عملاً صالحاً خالصاً أثيب ولابد، فضلاً من ربك وكرماً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠].

ومن سأل الله تعالى - وتوفر في سؤاله شرط الإجابة حالاً وسؤالاً- أجيب ولابد، فالله تعالى لا يخلف الميعاد، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله عز وجل في الحديث القدسي: (وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه).

ولكن ليس من شرط الإجابة: الفورية والإجابة بالحال، وليس من شرطها: موافقة الطالب في طلبه؛ لأن الله تام العلم واسع الرحمة كامل الإحسان، ولذا فهو سبحانه لتمام كرمه يتخير لعبده ما هو الأنسب له و الأرفق به والأكثر مصلحة له، مزيد عطاء منه سبحانه.

والنصوص متظافرة بذلك، ففي حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة، إلا أعطاها إياه، إما أن يعجلها له، وإما أن يدخرها له).

وحديث عبادة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قال: (ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم).

وحديث أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذا نكثر، قال: الله أكثر).

وفي تقرير ذلك يقول الحليمي: (الله تعالى إنما يستجيب الدعاء بالمستجمع شرائطه، إذا علم للداعي فيما سأل خيراً. فأما إذا علم أن له فساداً أو شراً، فإنه لا يستجيب له دعاءه: إكراماً وثواباً له بدعائه).

ويقول الخطابي: (وقد قيل: معنى الاستجابة: أن الداعي يعوض من دعائه عوضاً ما، فربما كان ذلك إسعافاً بطلبته التي دعا لها، وذلك إذا وافق القضاء. فإن لم يساعده القضاء، فإنه يعطى سكينة في نفسه، وانشراحاً في صدره، وصبراً يسهل معه احتمال ثقل الواردات عليه، وعلى كل حال فلا يعدم فائدة دعائه، وهو نوع من الاستجابة).

ويقول ابن الجوزي: (إن قال قائل: هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجيب أدعية الداعين، وترى كثيراً من الداعين لا يستجاب لهم!.

فالجواب: أن أبا سعيد روى عن النبيّ ﷺ، أنه قال: (ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها).

وجواب آخر: وهو أن الدعاء تفتقر إجابته إلى شروط أصلها الطاعة لله.

ومنها: أكل الحلال، فإن أكل الحرام يمنع إجابة الدعاء.

ومنها حضور القلب، ففي بعض الحديث: (لا يقبل الله دعاءً من قلب غافل لاه).

وجواب آخر: وهو أن الداعي قد يعتقد المصلحة في إجابته إلى ما سأل، وقد لا تكون المصلحة في ذلك، فيجاب إلى مقصوده الأصلي، وهو: طلب المصلحة، وقد تكون المصلحة في التأخير أو في المنع).

ويقول ابن حجر: (وقد استشكل بأن جماعة من العباد والصلحاء دعوا وبالغوا ولم يجابوا.

والجواب أن الإجابة تتنوع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن يتأخر لحكمة فيه، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير عين المطلوب؛ حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها).

ويقول د. العروسي: (فثبت بهذا أن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، يجيب من يشاء متى ما شاء، فهو يجيب بعين المطلوب، وهذا هو الغالب الكثير تفضلاً منه وإحساناً وكرماً، وقد لا يجيب بعين المطلوب لحكم وأسرار يعلمها الله تعالى، فقد تكون هناك مصلحة للداعي أو لغيره تمنع إجابة الدعاء، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[المؤمنون: ٧١]).

* * *

حادي عشر: الدعاء والقضاء:

فهم أناس من قوله ﷺ : (ولا يرد القدر إلا الدعاء)، أن هناك تعارض بين الدعاء والقضاء الأول، وسلكوا مسالك شتى، فقال بعضهم : القضاء ماضٍ ولا فائدة في الدعاء. وقال بعضهم: الدعاء يغير القضاء الأول. إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تقوم على برهان.

والصحيح أن الدعاء سبب من الأسباب التي قدرها الله تعالى وشرعها لرد البلاء وجلب الخير، والسبب (الدعاء) والمسبب (المدعو به)، داخلان في القضاء ولا يخرجان عنه.

فالدعاء من جملة ما سبق به القضاء؛ لأن الله قد أحاط بكل شيء علما، وقدر كل شيء تقديرا، ولا يمكن أن يخرج شيء عن قضائه.

وفي توضيح ذلك وتبيينه يقول الغزالي: (فإن قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له، فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض.

فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان.

وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[النساء: ٧١]، وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر، فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت. بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسبب، والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته).

وقال البراك: (ومن المبتدعة من قال: إن الدعاء إنما شُرع تعبداً فقط، وليس له أثر في حصول المطلوب؛ لأن المطلوب إن كان مقدراً وسيحصل؛ فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان لم يقدر؛ فلا فائدة في الدعاء؛ لأنه لن يحصل سواءً دعوت أم لم تدعُ!، فيقال لهم: هناك قسم ثالث، وهو: ما قدر الله حصوله بالدعاء، فما قدر الله حصوله بسببٍ لن يحصل إلا بهذا السبب، وهذه الشبهة طردها أن يقال لهم: قولوا مثل هذا في سائر الأسباب، فيقال لمن حرث وأراد الزرع والثمر: حرثك وزرعك هذا لا فائدة منه؛ فإن كان الثمر قد قدره الله فستحصل لك بدون عملك هذا، وإن لم يقدر لك فلا فائدة في عملك!، وهكذا يقال لمن سعى لطلب الرزق: الرزق الذي تسعى إليه إن كان مكتوباً لك فسيحصل ولو لم تسعَ، وإن كان غير مقدر؛ فلا فائدة في سعيك، ولا أثر له!، وهذه الشبهة تقتضي تعطيل الأسباب الشرعية والكونية، وهذا معلوم الفساد).

ومن دلائل ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، فعلق تعالى الإجابة بالدعاء - كما يذكر ابن تيمية - تعليق المسبب بالسبب، فلو كانت الاستجابة تقع بدون سبب الدعاء لكان تعليق الإجابة بالدعاء لا فائدة فيه، فيكون عبثا، وكتاب الله تعالى منزه عن ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، والتي جاء في سبب نزولها أن سائلاً سأل النبي ﷺ فقال: (يا محمد أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه)، فلو كان الدعاء غير نافع لبينت الآية ذلك، لحاجة السائلين إلى

ذلك. وأيضاً فالآية رتبت الإجابة على الدعاء بإذا الشرطية، الدالة على التحقيق المشروط متى توفر الشرط بتمامه.

وأيضاً فقد صرحت الآية بوعد الله بإجابة الدعاء، والله لا يخلف الميعاد.

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]، وهي صريحة الدلالة في أن دعاء المضطر ربه وتضرعه إليه هو السبب في إجابة سؤاله وكشف الضر عنه.

وقوله تقدس اسمه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[إبراهيم: ٣٩]، أي: لمجيب من دعاه، يقول السعدي في معناها: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

إضافة الى الآيات الكثيرة المخبرة بإجابة الله من دعاه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[الصافات: ٧٥].

وقوله سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٩].

وقوله تقدس اسمه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[طه: ٢٥-٣٦].

وقال د. العروسي: (وأما السنة الدالة على تأثير الدعاء فأكثر من أن تحصر، فقد تواتر عنه أمران، الأول: فعله للدعاء. والثاني: حثه ﷺ وترغيبه في الدعاء. وقد ذكر تواتر الأمرين عنه ﷺ في رسالته الأحاديث المتواترة).

إضافة إلى الأحاديث الكثيرة المخبرة بإجابة الله السائلين، كقصة أصحاب الغار الثلاثة، والذين أطبقت عليهم صخرة في غار، فسألوا الله وتوسلوا إليه بصالح أعمالهم أن يزيحها عنهم فانفرجت عنهم الصخرة وخرجوا سالمين.

وقصة جريج الراهب، لما اتهم بولد الزنا، فدعا الله تعالى فأنطق الله الغلام الذي اتهم بكونه ابنه من الزنا فبرأه.

* * *

ثاني عشر: دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله:

من قطعيات الملة، وأصول الديانة، وثوابت الشرعة حرمة توجيه شيء من دعاء التعبد والثناء لغير الله تعالى، وحرمة توجيه طلب السؤال لغير الله في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله، ومن ذلك سؤال الأموات والاستغاثة بهم وطلب الشفاعة منهم، فإن ذلك شرك كله، مخرج عن ملة الإسلام، بإجماع أهل الإسلام.

والنصوص مطبقة على ذلك، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[يونس: ١٠٦].

قال الخازن: (﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ﴾ يعني: إن عبدته ودعوته ﴿وَلا يَضُرُّكَ﴾ يعني: إن تركت عبادته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ يعني ما نهيتك عنه؛ فعبدت غيري أو طلبت النفع ودفع الضر من غيري ﴿فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لنفسك لأنك وضعت العبادة في غير موضعها).

وقال السعدي: (﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾، وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو الله تعالى. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ بأن دعوت من دون الله، ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها. وهذا الظلم هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣] ، فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين، فكيف بغيره؟!!).

ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٣] .

قال أبو زهرة: (﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، والدعاء هنا الالتجاء إليه والعبادة. أي: لا تعبد مع اللَّه إلها آخر، وتلجأ إليه ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾، أي: فتكون بسبب ذلك من المعذبين، الفاء

للسببية، ولذا نصب الفعل بعدها، ولقد كان النهي موجها إلى نبي الوحدانية، ليقتدي به غيره، وليعلم كل إنسان أن العذاب لاحق بمن يعبد مع اللّه إلها آخر، فقلب العبادة: الوحدانية، ولب الإيمان ألا يكون مع اللّه إله آخر).

وقال د. طنطاوي: (وخوطب ﷺ بهذه الآية وأمثالها، مع أنه أخلص الناس في عبادته لله تعالى، لبيان أن الشرك أقبح الذنوب وأكبرها وأنه لو انحرف إليه على سبيل الفرض أشرف الخلق وأكرمهم عند الله تعالى لعذبه سبحانه على ذلك، فكيف يكون حال غيره ممن هم ليسوا في شرفه ومنزلته).

ومنها: قوله عز وجل - آمرا عباده أن يوحدوه، وألا يدعوا معه أحد كائنا من كان- : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: ١٨] .

قال قتادة: (كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد وأراد بها المساجد كلها).

وقال السعدي: (أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته).

ومنها: قوله تقدس اسمه: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[الأعراف: ٢٩] ، أي: وحدوه في دعائكم وعبادتكم ولا تشركوا معه أحد.

قال السعدي: (أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه).

وقال أبو زهرة: (الأمر بالدعاء هو الأمر بالعبادة؛ لأن العبادة دعاء، والدعاء في ذاته اتجاه إلى الله بضراعة وخشوع وخضوع).

والمسألة موضع إجماع بين المسلمين، يقول ابن تيمية: (فمن جعل الأنبياء أو الملائكة أو الأئمة والأولياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب وتفريج الكربات، وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين).

وذكر ابن القيم من أنواع الشرك: (طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتّوجّه إليهم، وهذا أصل شرك العالم؛ فإنّ الميّت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عمن استغاث به، أو سأله أن يشفع له إلى الله).

وقال الصديقي الحنفي: (من قصد بزيارة قبور الأنبياء والصلحاء أن يصلي عند قبورهم ويدعو عندها ويسألهم الحوائج، وهذا لا يجوز عند أحد من علماء المسلمين، فإن العبادة وطلب الحوائج والاستعانة حق لله وحده).

وقال ولي الله الدهلوي: (طلب الحوائج من الموتى، عالما بأنه سبب لإنجاحها- كفر يجب الاحتراز عنه).

وقال الألوسي: (طلب الحوائج من الموتى، عالما بأنه سبب لإنجاحها كفر يجب الاحتراز عنه).

وقال الصنعاني: (ومن نادى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً وخوفاً وطمعاً، ثم نادى معه غيره فقد أشرك في العبادة، فإن الدعاء من العبادة).

وقال الشوكاني: (من اعتقد في ميت من الأموات أو حي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه إما استقلالاً أو مع الله تعالى، أو ناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر

عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله ولا أفرده بالعبادة؛ إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجراً أو شجراً أو ملكاً أو شيطاناً كما كان يفعل ذلك الجاهلية، وبين أن يكون إنساناً من الأحياء أو الأموات كما يفعله الآن كثير من المسلمين، وكل عالم يعلم هذا ويقر به: فإن العلة واحدة).

ثالث عشر: دعاء الأحياء:

لا يخلو الحي إما أن يكون غائباً أو حاضراً، فإن كان الحي غائباً، فسؤاله ما يقدر عليه لو كان حاضراً، شرك أكبر لما في ذلك من اعتقاد علم المدعو الغيب، وعلم الغيب خاص بالله تعالى وحده لا يعلمه إلا الله، ومن اعتقد ذلك لغيره سبحانه فقد أشرك.

وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله لو كان حاضراً، شرك أيضاً، لما في ذلك من صرف العبادة - وهي هنا الدعاء- لغير الله تعالى.

وصرف شيء من العبادة لغير الله شرك. إضافة إلى ما في ذلك من اعتقاد علم المدعو الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، فاجتمع في من هذه حالته، الشركين: شرك العبادة في الأول، وشرك الربوبية في الثاني.

وإن كان الحي حاضراً، فسؤاله ما يقدر عليه البشر بقدراتهم المحدودة جائز باتفاق الناس، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص: ١٥]، أي: استنصر الإسرائيلي بموسى عليه السلام على عدوه القبطي، ويسمي رشيد رضا هذه الصورة بدعاء العادة.

وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء المريض وغفران الذنوب شرك مخرج من الملة؛ لأن الدعاء عبادة، وصرفه لعبد عاجز لا ينفع ولا يضر من الشرك المبين، لأن الداعي بدعائه يكون قد اعتقد في المدعو النفع والضر الذي لا يقدر عليه إلا الله وحده.

❋ ❋ ❋

رابع عشر: سؤال المخلوقين:

لعل من أهم ما يعني في هذا الباب ما يلي:

أولاً: سؤال العلم:

سؤال العلم أمر مشروع باتفاق الناس، وقد يجب متى ترتب عليه عمل الواجب أو ترك الحرام أو أراد السائل التقرب إلى الله بعبادة من العبادات، لأن الله تعالى لا يتقرب إليه إلا بما شرعه وأذن به، ومن عمل عملاً ليس عليه أمر النبي ﷺ فهو مردود على صاحبه، ولذا فعلى من جهل أن يسأل ولابد.

وقد جاء الأمر بسؤال العلم والحث على طلبه في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣] .

+قال الواحدي: (قال أهل المعاني: وفي هذه الآية دليل على أن الخصم إذا التبس عليه أمر رد إلى أهل العلم بذلك).

وقال أبو زهرة: (أهل الذكر هم أهل التفكر والتدبر والعلم بالأشياء على وجهها، - ويدخل في هؤلاء أهل الكتاب-، أي: إن كنتم لا تعلمون هذه الحقائق، فلا تعجبوا في الأمر لمجرد أنه يثير عجبكم واستغرابكم، بل تعرفوا الأمر من أهل الذكر والحكمة والمعرفة وأهل الكتاب؛ ليزول عجبكم واستغرابكم).

وجاء في قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[يونس: ٩٤] ، أن المعنى - كما يقول ابن قتيبة- : (إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فسل الأكابر من أهل الكتاب والعلماء الذين

يقرؤون الكتاب من قبلك، مثل: عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الدّاري وأشباههم، ولم يرد المعاندين منهم فيشهدون على صدقه، ويخبرونك بنبوّته، وما قدّمه الله في الكتب من ذكره).

وقال البيضاوي: في الآية (تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم).

وقال النسفي: (سبيل من خالجته شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته أو بمباحثة العلماء).

وجاء في قوله ﷺ: (فإنما شفاء العِي السؤال) قال المظهري: (العِيُّ -بكسر العين وتشديد الياء-: التحير في الكلام، والمراد به ها هنا: الجهل، يعني: لِمَ لمْ يسألوا إذا لم يعلموا شيئاً، فإن الجهل داء شديد، وشفاؤه السؤال والتعلم من العلماء، وكل جاهل لم يستح عن التعلم، وتعلم يجد شفاء دائه، ويصير الجاهل بالتعلم عالما، ومن استحى عن التعلم لا يبرأ أبداً من دائه).

وقال الطيبي: (المعنى لِمَ لمْ يسألوا حين لم يعلموا؛ لأن شفاء الجهل السؤال، أو لِمَ لمْ تسألوا عن الشيء حين لم تهتدوا إليه؛ فإن شفاء العي السؤال).

وقال محمود السبكي: (أي: لا شفاء لداء الجهل إلا التعلم وسؤال أهل الذكر).

وقد كان هذا هدي الناس وسنتهم، تقول عائشة رضي الله تعالى : (نعم النساء نساء الأنصار؛ لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين).

وأسئلة الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم للنبي ﷺ عن أمور دينهم فوق أن تحصر، ولذا قال ابن العربي: (يلزم كل مؤمن ومؤمنة إذا جهلا شيئاً من دينهما أن يسألا عن ذلك).

ثانياً: سؤال الدعاء:

سؤال المرء حيا حاضراً الدعاء له، كالذي يقع من جماعات المؤمنين من سؤال بعضهم من بعض دعاء الله لهم بالخير والرحمة والتوفيق، أمر سائغ مشروع ، لما روي عن عمر رضي الله عنه، أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال: (أي: أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا)، قال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح)، وضعفه الألباني وشعيب.

وقد جاء من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (أنه سمع النبي ﷺ يقول: إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة).

وجاء من حديث أنس رضي الله عنه أن أمه رضي الله عنها قالت: (يا رسول الله خويدمك، ادع الله له، قال فدعا لي بكل خير).

وما جاء من حديث عمر رضي الله عنه قال: (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم)، وفي رواية: (فمن لقيه منكم فليستغفر لكم).

وجاء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله ﷺ: ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل)، وهذا دعاء ليس فيه ذكر المسألة.

واختار ابن تيمية تقييد الاستحباب في مسألة الدعاء هذه بأمرين: (نفع المطلوب منه والإحسان إليه) بحيث يقصد الطالب أن ينتفع الداعي بأجر دعائه له.

ويقصد أن ينتفع هو من دعاء الداعي له متى استجاب الله تعالى منه ذلك.

فأما إن قصد بطلب الدعاء فقط انتفاعه هو باستجابة الله دعاء الداعي، من دون قصد نفعه بذلك فهو موضع نهي.

وقال ابن مفلح: (ومن سأل غيره الدعاء لنفعه أو نفعهما أثيب، وإن قصد نفع نفسه فقط نهى عنه، كالمال، وإن كان قد لا يأثم. كذا ذكره شيخنا، وظاهر كلام غيره خلافه، كما هو ظاهر الأخبار).

وقال د. العروسي: (لكن يظهر من ظواهر الأخبار أنه ليس خلاف الأولى؛ لما ورد عن كثير من الصحابة أنهم طلبوا الدعاء من النبي ﷺ ولم ينكر عليهم)،

وهذا التقرير لا يبعد عن كلام ابن تيمية في موضع آخر فإنه قال: (لا بأس بطلب الدعاء بعضهم من بعض، لكن أهل الفضل ينوون بذلك أن الذي يطلبون منه الدعاء إذا دعا لهم كان له من الأجر على دعائه لهم أعظم من أجره لو دعا لنفسه وحدها)، فكأن نهيه الأول نهي عن ترك الأولى لا أكثر، لأن الصحابة رضي الله كانوا يسألونه ﷺ الدعاء، والله أعلم.

وقد نبه الشاطبي على أن طلب الدعاء قد يمنع متى اشتمل على محذور، فإنه قال: (خرج الطبري عن أبي سعيد مولى أبي أسيد؛ قال: كان عمر رضي الله عنه إذا صلى العشاء أخرج الناس من المسجد، فتخلف ليلة مع قوم يذكرون الله، فأتى عليهم فعرفهم، فألقى درته وجلس معهم، فجعل يقول: يا فلان! ادع الله لنا، يا فلان! ادع الله لنا، حتى صار الدعاء إلى عمر، فكانوا يقولون: عمر فظ غليظ، فلم أر أحداً من الناس تلك الساعة أرق من عمر رضي الله عنه؛ لا ثكلى ولا أحدا.

وعن سلم العلوي قال: قال رجل لأنس رضي الله عنه يوماً: يا أبا حمزة! لو دعوت لنا بدعوات، فقال: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة. قال: فأعادها مراراً ثلاثاً . فقال: يا أبا حمزة! لو دعوت لنا، فقال مثل ذلك لا يزيد عليه.

فإذا كان الأمر على هذا فلا إنكار فيه، حتى إذا دخل فيه أمر زائد صار الدعاء بتلك الزيادة مخالفا للسنة. فقد جاء في دعاء الإنسان لغيره الكراهية عن السلف، لا على حكم الأصالة، بل بسبب ما ينضم إليه من الأمور المخرجة عن الأصل).

ولذا فمتى كان في الطلب فتنة للمطلوب، أو هجرا من الطالب لدعاء الله والتذلل له كان منهيا عنه، لذلك الأمر الذي لحقه، لا لكونه في أصله منهيا عنه، والله أعلم.

ثالثاً: سؤال حاجات الدنيا:

سؤال المرء أخاه حاجة من الدنيا ليس بداخل في الشرك البتة، لأنه سؤال حي أمراً يقدر عليه، فلا إشكال فيه من هذه الجهة، والأصل فيه الكراهة، فتركه أولى توكلاً على الله واعتياظاً بسؤاله سبحانه، فهو وحده الملك الرزاق وغيره لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً، وقد بايع النبي ﷺ طائفة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً، يقول عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه: (فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه).

ونفَّر ﷺ أمته من سؤال الناس شيئاً من أموالهم، فقد جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً، فيسأله أعطاه أو منعه).

وكان عمر رضي الله عنه يقول: (مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس).

وذلك لما في المسألة من المذلة والضعة، والمؤمن عزيز غير ذليل.

قال ابن هبيرة: فيه (كراهية المسألة لمن يقدر على الاكتساب أعطي أو حرم).

وقال القاضي المغربي: (الحديث فيه دلالة على قُبْح السؤال وحُسْن الاكتساب، ولو امتهن نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة، وذلك لما يدخل على السائل مِنْ ذُل السؤال، ومن ذل الرد إذا لم يعطوه، ولما يدخل على صاحب المال من الضيق في ماله إن أعطى كل سائل).

وقال الخولي: (إن أُعطي السائل فالمنة عليه ثقيلة، والجميل أسر له واستعباد. وإن منع خزي وخجل وتأفف من المسؤول أو أبغضه، واضطغن عليه).

وكل هذا فيمن اضطر إلى السؤال أو احتاج إليه حاجة ملحة، أما سؤال الناس تكثراً فهو حرام، لقوله ﷺ (من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمر جهنم، فليستقل منه أو ليكثر).

وقوله ﷺ: (إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثٍ: ذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مدقع).

ولذا قال الغزالي: (السؤال حرام في الأصل، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدٌ فهو حرام).

وقال ابن تيمية: (سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي من نوع الشرك. ومفسدة إيذاء المسؤول وهي من نوع ظلم الخلق. وفيه: ذل لغير الله وهو ظلم النفس. فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة).

وقال المناوي : (فإن احتاج ولم يقدر على كسب لائق جاز بشرط أن لا يذل نفسه، ولا يلح، ولا يؤذي المسؤول؛ فإن فقد شرط منها حرم اتفاقاً).

وقال القاضي المغربي: (وقد اختلفت الشافعية في القادر على الكسب على وجهين أصحهما أنه حرام لظاهر الأحاديث، والثاني أنه حلال مع الكراهة بثلاثة شروط: أن لا يذل نفسه، ولا يلح في السؤال، ولا يؤذي المسئول، فإن فقد أحدها فهو حرام بالاتفاق).

وليس بداخل في المنع سؤال الغريم، ومن عنده له دين أو حق باتفاق الناس.

رزقنا الله حسن دعائه وكثرته، وجنبنا الشرك فيه، إنه جواد كريم.

والله الهادي